الشك المذهبي والشك المنهجي

الدكتور مبارك حمش حسين

إذا أردنا أن نتصور الشك المذهبي ، والشك المنهجي ، ونعطي للقارىء صورة واضحة عنهما يفرق بواسطتها بين هذين النوعين كي يعرف الشك النافع من الشك الضار ، فعلينا أن نضع مفهوما لكل منهما ونتتبع تاريخيا من القديم إلى الحديث حتى نصل إلى جذور كل منهما ، ومن القائلين بكل نوع منهما .

فنقول — وبالله نستعين — إن مفهوم لفظ الشك هو « يعني التردد بين أمرين لا ترجيح لأحدهما على الآخر لذاته » هكذا عرف المناطقة لفظ الشك .

فإذا ترجح أحد الأمرين لوجود مرجح خارج عنهما انقلب اللفظ من الشك إلى اليقين والإيمان به إيمانا مؤكدا لا يعتريه شك ولا ارتياب .

فعند « الشك ، اليقين والإيمان والتوكيد وبناء على هذا المفهوم للشك وضده يكون اليقين « هو إدراك الشيء إدراكا جازما لذاته » .

فالشكاك في الفلسفة عند أصحاب النزعة الإيقانية التوكيدية ، وإذا كان أصحاب النزعة الإيقانية لا يعرفون للمعرفة الإنسانية حدودا ويؤمنون بها إيمانا أكيداً بقدرة عقولهم ، فإن الشكاك مع العكس من ذلك ، فإنهم لا يعرفون للجهل الإنساني حدوداً ، ويعتبرون العقل عاجزاً تماما عن الوصول إلى أية معرفة .

فالشك إذا كان أول خطوة من خطوات الموقف الفلسفي ، ومن واجب الفيلسوف أن يتسلح بروح الشك حتى يتوصل إلى معرفة حقيقية

فأى نوع منه يتسلح به الفيلسوف أو الباحث عن الحقيقة حتى يتوصل إليها ؟ أهو الشك المذهبي ؟ أم هو الشك المنهجي ؟ وإذا كان هذا أو ذاك فما النافع منهما . . وما الضار ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تتضح تماما فى الصفحات التالية :

أولا : إن الشك المنهجي يتمثل فى الشك فى الطرف أو الوسائل الموصلة إلى المعرفة ،

والطرف أو الوسائل هى : الحواس أو العقل ، أو هما معا .

بمعنى : هل المعرفة السليمة من كل عيب أو خطـــأ ، التى نطمئن كل الاطمئنان فى كونها توصلنا إلى اليقين والإيمان ، تصل إلينا عن طريق ، أو عن طريق العقل ؟ أوعنهما معا ؟ أو عن غيرهما ؟

فإذا شك الفيلسوف أو الباحث فى تلك الوسائل كلها أو بعضها ، ثم تخلص من شكه فيها بعد أن طهرها وخلصها من العراقيل والأخطاء الواقعة فيها فإنه بالتالى يضمن الوصول إلى المعرفة اليقينية والتوكيدية السليمة من الأخطاء وعندئذ تزاح نفسه ويطمئن قلبه وعقله وهذا هو الطريق السليم للوصول إلى المعرفة الصحيحة من كل شائبة . . وهذا النوع من الشك نافع ومحمود لاغبار عليه يرتضيه الشرع والعقل والقلب ويتلاءم مع الفطرة الإنسانية السليمة والمبرأة من كل عيب .

---

(١) مبادىء الفلسفة ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٠ للأستاذ أحمد أمين ط سادسة .

وانظر : مقدمة فى الفلسفة العامة ص ١٠٨ — ١٠٩ د . يحيى هويدى ط سادسة .

ثانيا : الشك المذهبي وهو الشك الذى يتمثل فى الشك فى آية حقيقة أو أية معرفة ممكنة .

وهذا النوع يعرقل عملية التفكير الإنسانى ، ويجمد العقول ويشل حركتها ويقف عقبة فى سبيل التوصل إلى الحقيقة أو المعرفة المنشودة الأمر الذى لا يتفق مع ماتهدف إليه الإنسانية من تقدم فى الكشف عن المجهول لدى الإنسانية حتى تصل إلى المعرفة التامة لتقف على القوانين التى تحكم هذا الكون لتسخيرها فى خدمة البشرية جمعاء فيما يعود عليها بالخير والسعادة والأمن والسلام .

وهذا الشك هو الضار لأنه يؤدى إلى أن يبدأ الإنسان شاكا وينتهى شاكا فلا يصل إلى حقيقة من الحقائق وإذا كان فى معرض معرفة الله — تعالى — فإنه يؤدى بصاحبه إلى الكفر والإلحاد .

وهذا النوع من الشكاك هم الذين قال الله فى شأنهم ومن على شاكلتهم يسير : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير »(١) .

أما النوع الأول : وهو الشك المنهجى فيعتبر مرحلة تطهير وتنظيف وتنقية وتخلية الوسائل (الحواس أو العقل) من كل زيف وباطل حتى تتخذ طريقها إلى الوصول للحقيقة — كما قلنا آنفا —

بمعنى أن الإنسان فى تفكيره لابد له من عملية التطهير حتى يأمن سبل السلامة ويصل إلى شطآن الأمان ، أو أنه يؤدى إلى تحرير العقل من براثن الشبهات التى تعوق سبيله وهذا الشك لا بأس به ولا يعتبر ضاراً ولا يؤدى بصاحبه إلى الكفر والإلحاد .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٠

١ — ونحن إذا بحثنا فى أغوار الماضى السحيق نجد أول ما يطالعنا من الشكاك ، جماعة السوفسطائيين ،(١) الذين شكوا فى المنهج وبالتالى شكوا فى إمكان التوصل إلى الحقيقة ، فقد اتخذوا الشك المنهجى سبيلا إلى أفكار الحقائق وبذلك انكروا القيم والفضائل ، حيث قالوا : «إن وسائل المعرفة هى الحواس فقط ، وانكروا أن يكون العقل والوحى الإلهى وسيلتين من وسائل المعرفة ، وحتى اعترافهم بالمعرفة الحسية الناشئة من الحواس قالوا عنها انها معرفة نسبية ، بمعنى أنها تختلف من شخص الى آخر ، فما يراه شخص صوابا ربما يراه غيره خطأ .

وهكذا شكك الناس فى امكان الوصول الى حقيقة من الحقائق وبذلك نزعوا الى مبدأ الهدم والتقويض ، وعادوا كل مذهب يقين ، وفعلوا ما فعله الشكاك جميعا من شك فى المنهج ، وشك فى المعرفة ، وشك فى الاعتقاد بالحقائق والقيم الثابتة والفضائل ، وبالتالى انكروا الاعتقاد فى الإله أوفى أى عقيدة دينية أو روحية(٢) .

ولم يعتقدوا فى أى شىء على أنه حقيقة إلا المبدأ الذى اتخذوه منهجا فى الهدم والتقويض ، وكأنه حقيقة ثابتة عندهم . لهم ساء ما كانوا يحكمون .

ونحت الأكاديمية القديمة فى عصرهم منحاهم ، حيث أساءت الظن بالحواس وأيضاً بالعقل أداة للمعرفة ، وأنكرت وجود مقياس للحقائق ،

---

(١) جماعة من الفلاسفة اليونانيين عاشوا فى القرن السادس قبل الميلاد انظر : المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٤٥

(٢) أسس الفلسفة ص ٢٠٩ د . توفيق الطويل ط سابعة .

وانظر : المنهاج الجديد فى الفلسفة العربية ص ٢٨ د . عمر فروخ ط أولى ١٩٧٠ م .

حتى قال الباحثا : « إن المعرفة اليقينية الصادقة مستحيلة — وإن قالوا بمبدأ الترجيح أو الاحتمال — » حيث قالوا : « إن قضية ما يمكن أن تكون أكثر احتمالا أو أدنى إلى الصواب من قضية أخرى » ولذلك لم يركنوا إلى تعليق الحكم .

وقد ظهر من هذه الأكاديمية القديمة شخص يسمى « أركسيلاس » عام ٢٤١ ق. م. حيث كان يقول « إن الحكيم هو الذي يمسك عن إبداء رأيه في أي موضوع يعرض له ، ويتوقف عن إصدار الحكم بصدده »(١) .

وبهذا يكون هذا الفيلسوف قد قال بالشك المطلق أي أنه أمسك عن إبداء رأيه فى أى موضوع يعرض له ، ويتوقف عن إصدار حكم بصدده .

وكان قد ظهر قبل هذا الشخص — شخص آخر يسمى « كارنيادس » ١٢٨ ق. م. وكان من أكبر شكاك عصره .

ومن قال بالشك المنهجي «الفيلسوف» « بيرون » الذى ظهر عام ٢٧٥ ق. م. ومدرسته وامتدادها فى الاسكندرية على يد «أنسيديموس» فى القرن الأول بحججه العشرة التى أيد بها ضرورة الشك فى المحسوسات فقط أى استخدم الشك المنهجى وأقام الأدلة على إنكار العلم بالمعقولات(٢) .

ويرى الفلاسفة أن « بيرون » برأيه هذا فى الشك آثر السلامة والأمان على نفسه ، حيث يقولون « يبدو الشك البيرونى متخاذلا يائساً مترددا لا يقوى على إصدار حكم إيجابياً كان أم سلبياً .

والخلاصة أن شك السوفسطائيين ومن سار على نهجهم فقد كان شكهم

---

(١) أسس الفلسفة صـ ٣٠٩ .

(٢) مدخل جديد إلى الفلسفة صـ ١١٤ د. عبد الرحمن بدوى .

قوياً ينبيء عن مدى الحيوية فى نفوسهم ، وعدم مبالاتهم بالعادات والقيم الشعبية ، فلم يقيموا لها وزناً ولا يحبئون بها ، فقد سخروا منها وأبانوا عن تهافتهم وما جبلوا عليه من طباع مرذولة وقيم دنيئة(١) .

٢ — وجاء عقب السوفسطائيين — سقراط الفيلسوف اليونانى — واتخذ الشك المنهجى طريقاً إلى الوصول للمعرفة وإثبات المفاهيم والحقائق الكلية الأشياء وبذلك أثبت أن هناك حقيقة ومفاهيم كلية وقيما ثابتة من فضائل ورذائل .

فقد اتخذ « سقراط » هذا المنهج واستخدمه فى كل بحوثه لإثبات الحقيقة التى كانت ضائعة ، ومفقودة فى عصر السوفسطائيين .

فما المنهج السقراطى ؟

الجواب : إن سقراط فكر فى إقامة منهج جديد يخالف المناهج السابقة عليه ليصحح الأخطاء التى وقعوا فيها .

فيحدثنا تاريخ الفلسفة اليونانية القديم فيقول : « فقد اصطنع سقراط منهجه حين أخذ يناقش حكماء عصره فى معلوماتهم ، ويختبر صحتها ، ويكشف عن حقيقتها بإثارة الشك فى صوابها .

وسلك « سقراط » منهجاً فى الشك فريداً لم يعرف من قبله ، وامتاز بجانبين .

١ — الجانب الأول : تخليص العقل من الأخطاء التى وقع فيها .

٢ — الجانب الثانى : التوليد أو الاستنباط الموصل الى الحقيقة المنشودة(٢) .

---

(١) أسس الفلسفة صـ٣١ .

(٢) مناهج البحث من مؤلفاتنا صـ ١٣٣ . عام ١٩٨٢ م .

والجانب الأول يمثل الجانب السلبي ، لأنه يسلب الأخطاء من العقل ويطهره من أدران ماعلق به من معلومات خاطئة .

والجانب الثاني يمثل الجانب الإيجابي الذي يولد المعاني والمفاهيم من الجزئيات ويعطيها صفة الكلية والتعميم .

وقد سلك طريقة التهكم مع خصومه ، فكان كأنه يتعلم منهم ، فيسلم بأقوالهم مصطنعاً الجهل ، ثم يأخذ في الإستفسار والتساؤل واثارة الشكوك في صحة مايقولون ، ويستمر في أسئلته مستنبطاً من أقوالهم أفكاراً لاتروقهم فيبدوا بهذا تناقضهم ... وهكذا ينتهي من مرحلة التهكم إلى تحرير العقل من الأخطاء التي أوقعه فيها محدثوه من السوفسطائية .

وعندما يصل « سقراط » الى هذه المرحلة يبدأ يرشد بأسئلته ويلفت أنظارهم الى الحقيقة ، وهذا هو الجانب الإيجابي في منهجه .

٣ — وجاء « أرسطو » بعد « سقراط » وكشف عن منهاجه في البحث وسماه « الشك المنهجي » في كتابه « مابعد الطبيعة » أو « الميتافيزيقيا » أو « ماوراء الطبيعة » وفرق بينه وبين الشك المذمي ، فأهمل الشك المذهبي ، وأيد الشك المنهجي ، وأوصى بالعمل به عند البحث عن الحقيقة العلمية ، حيث وجد «أرسطو» علاقة ضرورية تقوم بين الشك في المنهج أي الوسائل المؤدية الى الحقيقة وبين المعرفة الصحيحة .

وشجع الباحثين على سلوك هذا المنهج ، وبين لهم أن من يرتاد « ملكة تحصيل المعرفة » يجدها في الشك الذي يقوم على التروى والتبصر تحقيقا لغايته وكشف لهم الطريق الى المعرفة الصحيحة فقال : « ان الذين يقومون ببحث علمي من غير أن يسبقوه بشك يزاولونه ، يشبهون الذين يسيرون على غير هدى فلا يعرفون الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكوه » .

ويقول أيضاً « إن كل حكم يصدره باحث ينبغي أن يسبقه نظر في الأسباب التي تؤيده ، والمبررات التي تعارضه ».

والحق أن الشك المنهجي هو الذي يبصر الإنسان بوسائل المعرفة الصحيحة ويوصله إلى اليقين العلمي السليم .

وبجانب الشك المذهبي الذي كان في العصور القديمة، نجد أن هناك في بداية عصر النهضة اجتاحت الغرب الأوربي موجة من الشك... ولكن أي نوع من الشك ؟ .

إن الجواب يقول لنا أن الحقائق تكشف لنا عن نوع هذا الشك : إنه الشك المذهبي أي الشك في الدين المسيحي أو بمعنى أوضح إنه شك ضد الدين وهذا يسمى إلحاداً وكفراً .

وحينما انتشرت هذه الموجة من الحاد قام من الشكاك أنفسهم فلاسفة شكوا في قيمة الإنسان، وقيمة العلم الانساني ليصلوا من وراء ذلك إلى أن الدين وحده هو الذي يستطيع أن يوفر لنا اليقين فقد اتخذوا من الشك في المعرفة الإنسانية وسيلة للوصول إلى الدين ، لأن الشك على حد تعبير أحدهم وهو «شارون » « خير وسيلة لتثبيت قواعد المسيحية في قلوب هؤلاء الملاحدة الخوارج »(١) .

وذلك أن الإنسان إذا فقد ثقته بعقله فسيتجه من تلقاء نفسه إلى الوحي والإيمان ، وأشهر هذا النفر من الشكاك المؤمنين « ميشيل دي مونتني » (١٥٣٣ — ١٥٩٢) الذي ذهب إلى أن الإنسان لا يعرف شيئاً عن نفسه

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة ص ١١٢ . د. يحيى هويدي ، ط. سادسة .

أو عن الطبيعة ، وأكثر الناس علماً هم الذين يعلمون أننا لا نعلم شيئاً والإنسان لا يعلم شيئاً لأنه هو نفسه ليس شيئاً .

وهذا النوع من الشك — كما قلنا يؤدى بصاحبه إلى الإلحاد، والمروق من الدين ويمثل الفلاسفة الملحدين الذين قال عنهم « بسكال » فى كتابه الخواطر: «إن من يتهكم على الفلسفة فإنه فى تهكمه هذا يتفلسف بمعنى الكلمة وهذا يعنى أن الشك المذهبى يسلكه الفيلسوف ، لأنه لا يهمه شىء سوى عمله كفيلسوف سواء أدت به فلسفته إلى الإلحاد والمروق من الدين أولا ...

وجاء «فرنسيس بيكون» فى أوائل العصر الحديث واتخذ الشك المنهجى طريقاً للتوصل إلى المعرفة السليمة من كل عيب أو خطأ.

فبدأ منهجه بتطهير العقل من الأفكار الخاطئة القائمة على أساس التخمين والفروض الكاذبة .

وكان هدفه من هذا التطهير إزالة كل الأخطاء التى تعرقل مسيرة العقل أثناء تأديته الوظيفة المنوطه به ، وهذا ما عبر عنه بالجانب السلبى وهو يشابه ويضاهى القاعدة الأولى من منهج « ديكارت » الفيلسوف الفرنسى .

وقد سماها « بيكون » بالأوهام أو الأوثان ، ويقصد أنها تشابه أصنام الوثنيين فى مقابل الديانات السماوية المنزلة(١) .

---

(١) قصة الفلسفة تأليف ول ديورانت « الترجمة العربية » ص ١٩٢ ص ١٩٤ .

ترجمة : د . فتح الله محمد المشعشع ط رابعة ١٩٧٩م

١ — أوهام الجنس .

٢ — أوهام الكهف .

٣ — أوهام السوق .

٤ — أوهام المسرح .

فأوهام الجنس: هى الأخطاء التى يقع فيها الإنسان بحكم طبيعته البشرية الناقصة ، وسبب هذه الأخطاء يرجع إلى :

١ — التسرع فى الحكم كالإنتقال من الجزئيات إلى الكليات بلا تأنى، ولا روية .

٢ — الكبرياء والميل والهوى والشهوة .

٣ — الأخذ بالشواهد المؤيدة للباحث فى بحثه دون مراعاة الأمثلة التى تنفيها .

٤ — الإعتقاد فى الظواهر على أنها بسيطة مع أنها فى الحقيقة شديدة التعقيد .

٢ — وأوهام الكهف : وهى الأخطاء الناتجة عن تربية الباحث على ثقافة معينة وفى مجتمع معين ، وهذا يتنافى مع النزاهة العلمية التى تتطلب ثقافة واسعة ذات جوانب كثيرة متعددة .

٣ — وأوهام السوق وهى الأخطاء التى تنشأ عن استعمال اللغة كوسيلة التعبير ، ونقل الأفكار ، وتنشأ هذه الأخطاء عن غموض اللغة ، وعدم القدرة على التعبير ، كما أن وجود ألفاظ ليس لها مدلول لعتبر زائفة فلا ينبغى استخدامها .

٤ — أما أوهام المسرح فهى الأخطاء التى يقع فيها الإنسان بسبب تمسكه بآراء المفكرين السابقين دون تمحيص .

إن هذه العملية التطهيرية للعقل من كل ما تقدم يعتبر الجانب السلبى من منهج « بيكون ».

أما الجانب الإيجابى من منهجه فيتمثل فى جمع الحقائق والمعارف ، عن طريق إيراد أكبر عدد ممكن من الأمثلة والشواهد التى تؤيد الظاهرة .

والأمثلة والشواهد التى تنفيها .

ومن أجل الوصول إلى هذه التجربة، فقد وضع « بيكون » ثلاث قوائم فى بحثه وهى[1] :

(ا) قائمة الحضور (الإثبات) : وفيها يحشد الباحث جميع الأمثلة والدلالات والشواهد التى تثبت الظاهرة المبحوثة وهذه الطريقة تشابه طريقة التلازم فى الوقوع عند استيوارت مل) .

(ب) قائمة الغياب (النفى) : وفيها يحشد الباحث كل الأمثلة التى تنفى حدوث الظاهرة... وهذه الطريقة تشابه وتماثل طريقة التلازم فى التخلف عند (استيوارت مل) أيضاً .

(جـ) قائمة المقارنة أو المواءمة بين حالات الحضور والغياب : وفيها يحشد الباحث الشواهد والأمثلة التى تظهر فيها الظاهرة بدرجات متفاوتة قوة وضعفاً وهذه الطريقة تضاهى طريقة التفسير النسبى عند (استيوارت مل) أيضاً .

هذا وقد استخدم « بيكون » كإثبات لصحة منهجه الإيجابى مثالا هو : البحث عن مصدر « الحرارة » .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ — ص ١٦٧

فتبين له أن وجود الحرارة يقترن بسبعة وعشرين مصدراً مثل: الشمس — الصواعق — لهيب النيران — الإحتكاك — الأجسام الحية . . . إلخ وسمى هذه بقائمة الحضور ، ثم جمع شواهد فى قائمة ثانية تتضمن أمثلة ينتفى فيها وجود الحرارة مثلا : القمر فى مقابل الشمس ، والأسماك فى مقابل الحيوان ذى الدم البارد، والرماد فى مقابل اللهب ... إلخ وسمى هذه بقائمة الغياب .

وأورد قائمة ثالثة جمع فيها الشواهد التى تزيد مع زيادة الحرارة وتنقص مع قلتها ، ورفض منها الأمثلة التى لاتغير الحرارة ، وأنتهى إلى أن الحركة تلازم كل جسم حار ، وأنها تطرد معه زيادة ونقصاً واستنتج من تجربته هذه أن « الحركة هى علة الحرارة » .

كما أهتم « بيكون » بتحديد الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الباحث العلمى وهى(١) :

١ — التأنى والتزام التروى ، وعدم التسرع فى أصدار الحكم على الأشياء الممحوثة قبل التأكد من صحة تجاربها .

٢ — تكرار التجارب وتنويعها .

٣ — الإستشهاد بالأمثلة المتعددة قبل صدوره الحكم العام .

٤ — الإقتصاد فى وضع الفروض . وعدم الإكثار منها حتى لاتضيع الحقيقة .

٥ — أن تكون الغاية من البحث واضحة جليه .

٦ — التزم الباحث بالموضوعية، بمعنى عدم التأثر بغيره من الأشخاص أو بالبيئة التى يعيش فيها .

٧ — اتصاف الباحث بالقدرة على اقتحام الصعاب ، وسعة الحيلة

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨ ، ١٦٩

والمهارة والإتصاف بالصبر والمثابرة والتضحية بكل شيء سبيل الوصول إلى الحقيقة المنشودة(١) .

أما الصفات التي ينبغي أن يتصف بها البحث العلمي فتكون كالآتي :

١ — أن يكون القانون العلمي الناتج من الملاحظات والتجارب مطابقاً للواقع .

٢ — أن مطابقته للواقع باطراد بلا استثناء أو شذوذ .

٣ — أن المعلول يدور مع علته وجوداً وعدماً ، بمعنى : أن كل ظاهرة لابد أن تكون مقرونة بعلتها .

٤ — إذا وجدت العلة والظروف الملائمة لحدوث الظاهرة فلابد أن يحدث معلولها ، بمعنى : حتمية حدوث الظواهر ، إذا وجدت عللها .

٥ — إن القانون العلمي يفسر الظواهر ، وهذا يساعدنا على التنبؤ بما سيحدث من النتائج .

٦ — إن النتائج دائماً تكون احتمالية ، بمعنى أنها تكون قابلة للتعديل بما سيحدث في المستقبل ، تبعاً لتقدم البحوث العلمية وتطور وسائلها وأدواتها .

٧ — تحديد الحكم العلمي فالعلم هو ما يمكن قياسه وتحديده بدقة ليكون موضوعيا .

٨ — اتسام البحث العلمي بالتحديد الدقيق ، بمعنى أن يكون موضوع البحث جامعا مانعا أي : جامعا لجميع أفراد الموضوع المقصود معرفته ، ومانعا من دخول أي فرد غريب عنه .

---

(١) التفكير العلمي — نشأته ومدارجه الأولى تأليف مصطفى نظيف عام ١٩٥٢ م .

وبمعنى أوضح أن يتجنب الباحث حشو بحثه بأمور غريبة ، ليست داخلة فيه(١) .

وجاء بعد « بيكون » الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) الذى أرسى الشك المنهجى على أسس سليمة حيث قال : « إننا لكى نبحث عن الحقيقة ينبغى أن نشك فى كل ما يصادفنا من أشياء ، ولو مرة واحدة فى حياتنا » (٢) .

ودعا إلى نبذ كل المعتقدات وكل الآراء التى ورثها الإنسان ممن قبله سواء أكانت عن طريق الفكر الشائع ، أو عن طريق السلطة أيا كانت ليصل الإنسان إلى الذوق العقلى السليم الذى هو مشترك بين كافة الناس كما يقول ديكارت نفسه فى أول كتابه المقال فى المنهج : « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » وهى عبارة جميلة تعكس إيمان « ديكارت » بالعقل الإنسانى . وكان يرمى أيضا من عبارته هذه أن المعرفة للجميع وأن باب الثقافة مفتوح أمام كل الناس ، لأن العلم ليس وقفا على طائفة دون أخرى أو طبقة دون طبقة .

وبدأ بعد ذلك « ديكارت » شكه فى وسائل الادراك من الحواس والعقل فقال « لأننا كنا فى مرحلة الطفولة ، وقبل أن نبلغ طور الرجولة ، ونحكم على الأمور التى تعرض لحواسنا تارة حكما خاطئا ، وتارة حكما مصيبا ، وكذلك عندما استخدمنا العقل للوصول إلى الحقيقة ، وجدناه لم يوصل إليها ونبهنا إلى أنه ليس هناك دليل واضح بين ، نستطيع بواسطته التخلص من هذه الأحكام إذا لم نزاول الشك فى جميع الأمور ولو مرة واحدة(٣) .

---

(١) مناهج البحث عند مفكرى المسلمين طبع عام ١٩٦٥ م . د . على سامى النشار

(٢) مقال فى المنهج تأليف ديكارت . الترجمة العربية محمود الخضرى ص ١٣٠ — ١٣١ ط ثانية .

(٣) مبادىء الفلسفة .

ويكرر هذا الأسلوب في تأملاته في الفلسفة الأولى فيقول : « إنه منذ حداثة سنه تلقى آراءا باطلة ظنها صحيحة ، وأن كل ما أقامه على أساسها مثار لكل شك ، ولهذا وجد نفسه محتاجا لأن ينزع عن نفسه ولو مرة واحده كل ما سبق له التسليم به من آراء ، وأن يهدم كل ما سبق له أن يدين به من معتقدات ، وأن يشرع من جديد في اختيار معارفه إذا أراد أن يقيم في العلم شيئا جديدا (١) .

إذن شك « ديكارت » في وسائل المعرفة من حواس وما ينتج عنها من معارف وعقل وما ينتج عنه من مفاهيم .

فقال : « كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت به بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطه الحواس ، غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان ، فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الإطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة(٢) .

ثم قال عن مدى شكه في العقل « فإن معتقدا قد رسخ في ذهني زمن طويل ، وهو أن هنالك إلها قادرا على كل شيء ، وهو صانعي وخالقي على نحو ما أنا موجود ، فما يدريني لعله قد قضى بأن لا يكون هنالك أرض ولا سماء ولا جسم يمتد ، ولا شكل ، ولا مقدار ولا مكان ، ودبر مع ذلك أن أحسن هذه الأشياء جميعا ، وأن تبدو لي موجوده على نحو ما أراها ؟ بل لما كنت أرى أحيانا أن غيري يغلطون في الأمور حتى يحسبون أنهم أعلم الناس بها ، فما يدريني لعله قد دبر أن اغلط أنا أيضا كلما جمعت اثنين وثلاثة أو احصيت اضلاع مربعا ما ، أو أطلقت حكما على شيء

---

(١) التأملات — التأمل الأول ص ٧١ للدكتور عثمان امين ط رابعة عام ١٩٦٩ م

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ — ٧٣

أسهل من ذلك ولو أمكن أن نتصور شيئا أسهل منه ؟(١) .

قد يكارت شك فى كل وسيلة من وسائل المعرفة ثم عاد وأثبت وسيلة شعر بها فى قرارة نفسه وهى الحدس ، وقال عنه : إنه نور فطرى يولد الإنسان مزودا به ، به يدرك الأشياء البسيطة .

فاليقين العلمى لم يأته إلا عن طريق « الحدس » .

والمتأمل فى كلام « ديكارت » يدرك أنه شك فى كل شىء حوله ماعدا نفسه لم يستطع الشك فيها ، واتخذ منها منطلقا إلى اثبات وجود الله ـ تعالى حيث انتقل من الشك إلى اثبات فكره ، وانتقل من اثبات فكره إلى اثبات وجود نفسه ، ومن وجود نفسه توصل اثبات وجود الله ـ تعالى فقال : « أنا أفكر — إذن أشك(٢) — فأنا إذن موجود ومادمت موجودا فمن أوجدنى ؟ .

هل أوجدت نفسى بنفسى ؟ أم أوجدنى والدى ؟

وإذا ثبت أنى لم أوجد نفسى أو لم يوجدنى والدى فلا بد من موجود كامل منحنى هذا الوجود ... وهذا الموجود الكامل هو « الله » ـ تعالى ـ وقد أقام أدلة فلسفية على اثبات وجود الله ـ تعالى ـ فقال :

١ — إن كل فكرة لها علم ، وهذا العلم لا بد أن يكون له من الوجود الواقعى بمقدار ما فى الفكرة من وجود موضوعى (ذهنى) :

إذن فكرة الكمال قد جاءتنى من فكرة موجود كامل له كل صفات الكمال .

---

(١) المصدر السابق ص٧٧

(٢) فالشك ضرب من ضروب التفكير ، فهو ملازم للتفكير ، والتفكير ملازم له فإذا قلت أنا افكر إذن فأنا أشك ، وإذا قلت أنا أشك إذن انا افكر . .

٢ — لو لم يكن هناك إله موجود ، فمن أوجدنى ؟ .

هل أوجدت نفسى ؟ .

هل وجدت أبدا على نحو ما أنا عليه ؟ .

هل أوجدنى والداى ؟ .

هل أوجدتنى علة ؟ .

وماهى العلة ؟ ألها وجود من ذاتها ؟ .

أم أن وجودها من علة أخرى حتى نصل إلى علة ذاتية ؟(١)

والخلاصة : أن « ديكارت » توصل إلى اليقين البديهى فى المعرفة الذى ادركه بواسطة الحدس الفطرى — كما قلنا آنفا — ولهذا وجد الأساس العقلى الذى أقام عليه صرح فلسفته فقال : أنا أفكر إذن أنا موجود .

وهذا مبدأ يقينى بديهى توصل إليه بالحدس ، وبه أثبت « الأنية بالفكر ومن هذا انتقل إلى إثبات وجود الله وصفاته ، فالله كامل مطلق الكمال ، منزه عن كل نقص ، وهو الذى وضع العقل فينا ، فهو الضامن لصحة التفكير متى كان موضوع التفكير واضحا متميزا .

ومن هنا أباح « ديكارت » لنفسه — بعد شكه المنهجى — أن يفكر فى النفس ويعتبر ماهيتها فكرا ، ويفكر فى الجسم ويعتبر الماهية امتدادا ، وانتهى من هذا كله إلى اليقين بوجود العالم الخارجى وموجوداته المادية .

هذا وقد سلك أيضا الشك المنهجى « الفيلسوف » دافيد هيوم حينما

---

(١) التأملات ، التأمل الثالث ص ٥٠ .

أكد أهميته فى البحث الوصول إلى الحقيقة ، فقال : « إذا كنا فلاسفة فينبغى أن تقوم فلسفتنا على أسس شكلية ، بل سمى هذا الشك بالشك الأكاديمى (العلمى) ، وصرح بأنه ضرورى لكل بحث نزيه ، لأنه يبعث على مواصلة النظر فى الأمور وإمعان التفكير فيها ، ومواصلة اختبارها من غير توقف .

وهذا المنهج قد عرفته الدراسات العقلية الحديثة حيث جاء « هملتون عام ١٨٥٦ م ، وأيد الشك المنهجى واعتبره الطريق الوحيد الموصل إلى الاعتقاد الصحيح فقال « إننـــا نزاول الشك مؤملين أن ينتهى بنا إلى الاعتقاد » .

وقد أيد هذا المنهج مدارس التحليل النفسى (السيكولوجى) الحديث الذى تناول البحث فى طبيعة عملية التفكير ، فإن الاعتقاد والأفكار فى رأى الكثير من علماء النفس مظهران لحالة نفسية واحدة ، فيقولون « إننا لانفكر شيئا قط بسبب أننا نعتقد فى شىء يقابله أو يتعارض معه ، فليس من المعقول أن ننظر إلى الإنكار على أنه حالة مستقلة تخضع للبحث بمعزل عن حالة الاعتقاد ، فإن الضد الصحيح للاعتقاد هو الشك بهذا المعنى ضروريا لكل معرفة صحيحة .

وقد سار على الشك المنهجى « هوسرل » ١٨٥٩ — ١٩٣٨ م صاحب فلسفة الظاهرات ، فقد صرح فى أول كتابه « التأملات الديكارتية »(١)

— الذى اطلقت عليه هذا هذا الاسم اعترافا بفضل « ديكارت » عليه بأنه سيشرع فى أن يضرب بكل المعتقدات عرض الحائط ، وأنه

---

(١) مدخل جديد إلى الفلسفة ص ١٣٢ د . عبد الرحمن بدوى ط أول ١٩٧٥ م .

الحكم على الموجودات أو بالأحرى على كل الأحكام الوجودية التي تتناول وجود الأشياء ، ووجود العالم بل وحتى وجود الله ، أو أنه سيضع هذه الموجودات بين قوسين .

ويسمى « هوسرل » منهجه هذا بمنهج الشك المؤقت ، ويعرفه فيقول: « إني لا أنكر هذا العالم ، كما ينكره السوفسطائي ، ولا أشك في أنه قائم هناك كما يشك الشاك ، ولكني استخدم منهج الشك المؤقت في كل شيء وهو منهج يمنعني منعا باتا من أن أطلق على أي شيء حكما يتصل بوجوده المكاني والزماني . أو يجعلني أعلق الحكم على وجوده، وأكتفي بأن أضع هذا الوجود بين قوسين »(١)

هذا هو منهج « هوسرل » الشكي .

فقد حرص « هوسرل » بنفسه على أن يوضح ويبين الفارق بينه وبين منهج « ديكارت » الشكي

حيث رأى أن « ديكارت » قد سعى من وراء منهجه الشكي أن يكون شاكا شكا كاملا يلغي فيه « ديكارت » الوجود الواقعي للأشياء ليربطه بعد ذلك بوجود الله - تعالى - أي أنه يثبت وجود الله تعالى أولا ثم يثبت بعد ذلك وجود العالم بعده .

وهذا المنهج يوافق المنطق السليم والعقل الرصين ويلائم الفطر المستقيمة حيث اثبت الإسلام « ان الله كان ولا شيء معه » فقال النبي (ص) فيما رواه الإمام البخاري في صحيحه قال « كان الله ولا شيء معه » :

أما « هوسرل » فقد وضع وجود الأشياء بين قوسين، بمعنى أنه لا يلغي

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ — ١٣٦

الوجود الواقعى للأشياء أصلا بل يعترف بهذا الوجود على ضرب من الشك ولهذا كان شك « هوسرل » أكثر واقعية من شك « ديكارت » الذى نفى فيه واقعية وجود العالم حتى اتضحت له الحقيقة فى وجوده بعد أن أثبت وجود خالقه أولا .

وبعد أن سردنا أهم القائلين بالشك المنهجى وأهم القائلين بالشك المذهبى تتضح لنا الفروق بينهم وهى كما يلى :

أولا : إن الشك المذهبى يبدأ صاحبه شاكا وينتهى شاكا ، فلا يستطيع أن يصل إلى إثبات حقيقة من الحقائق .

أما الشك المنهجى فيبدأ صاحبه شاكا وينتهى مؤمنا موقنا بما توصل إليه من إثبات الحقائق أو المعارف المراد إثباتها .

ثانيا : إن الشك المذهبى وسيلة وغاية ، فيبدأ صاحبه شاكا من بادىء أمره وينتهى إلى غاية وهى أن الشك مازال فى ذهنه لا يستطيع التخلص منه وبذلك يثبت عجزه وعدم استطاعته الحكم على أى شىء .

أما الشك المنهجى فيتخذه صاحبه وسيله أى طريقة بواسطتها يتوصل إلى إثبات الحقيقة المنشودة .

بمعنى أن الفيلسوف فى أول طريق البحث يبدأ بتطهير الطريق وابعاد الآراء السابقة من طريقه ليصبح بعد ذلك بحثه خاليا عن كل المؤثرات والعراقيل التى تعوق العقل من المضى فى سبيله . وبذلك يمكن صاحبه من الوصول إلى الحقيقة وإلى الإيقان العلمى فيها بكل تأكيد .

ثالثا : إن الشك المذهبى يؤدى إلى الالحاد إذا كان بصدد البحث فى القضايا العقدية أو المتعلقة بالدين أو الوحى الإلهى .

أما الشك المنهجى فإنه شك فى الوسائل أو الطرق المؤدية إلى الحقيقة وهذا لايؤدى بصاحبه إلى الإلحاد أو المروق من الدين .

رابعا : إن الشك المذهبي يرمى إلى هدم إمكانية المعرفة .

أما الشك المنهجى فإنه على العكس من ذلك فإنه لايرمى إلى هدم إمكانية المعرفة . بل هو يرمى من ذلك تماما إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية ، وإقامتها على أسس سليمة من كل خطأ .

وبذلك يكون الشك المذهبي عقيما يؤدى إلى عقم الفكر وعدم تفتحه فى حين يفتح الشك المنهجى أمام التفكير آفاقا كثيرة متعددة ويجعل بابه طلب المعرفة والبحث الوصول إليها متواصلا لاينقطع مما يشجع المفكرين إلى طلبها بأى طريق وفى كل زمان ومكان .

وهذا ما دعت إليه الكتب السماوية ، وحث عليه المولى — عز وجل — إلى النظر فى هذا الكون ليقف الإنسان على حقائقه وقوانينه التى تحكمه حتى يمكنه تسخير تلك القوانين وهذه الحقائق لخدمة البشرية جمعاء فيما يعود عليها بالخير والسعادة والأمن والاستقرار .

هذا هو الفرق بين الشك المنهجى ، والشك المذهبي قديما وحديثا فأى نوع منهما تسرب وغزا البيئة الإسلامية ؟

ومن أول المفكرين الاسلاميين الذين استعملوه فى تفكيرهم ؟

الجواب :

إن الشك المنهجى هو الذى دخل البيئة الإسلامية .

وأول من استخدمه بادىء ذى بدء فى القرن الأول الهجرى ، وبالتحديد

فى الربع الأخير من هذا القرن «المعتزلة» فى الطريق الموصل إلى المعرفة أى معرفة الله — تعالى — .

وقد إستخدم «المعتزلة» المنهج الشكى فى التوصل إلى المعرفة الحقيقية ويقصدون بهذا أنهم شكوا فى الطرق الموصلة إلى المعرفة اليقينية أى معرفة الله — تعالى — فقالوا : إنه واجب على العاقل الشك ، أى الشك الذى يكون وسيلة إلى المعرفة(١) .

وفى القرن الخامس الهجرى ظهر الإمام أبو حامد الغزالى فى البيئة الإسلامية (عام ٤٥٠—٥٠٥) ﻫ .

ونشأ هذا العالم الجليل فى البيئة الإسلامية فى وقت كان العالم الإسلامى يموج ويضطرب فى خلال الجرى وراء إبتداع المذاهب العقلية فى الدين ، وكان من توفيق الله — تعالى — أن حبة الإسلام قد منح طبيعة طلعة ، وذهنا ثاقبا ، وتفكيرا حكيما ، وتربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى فى إوسط هذا العالم ، الذى يموج بالفلسفة ، وتكثر فيه المذاهب والمناهج .

بدأ — الإمام الغزالى — يبحث عن منهج سليم من كل خطأ ، صحيح من كل عيب يوصله إلى الحقيقة واليقين .

وفتش عن هذا المنهج فى وسط المناهج الكثيرة المتعددة والمتنوعة ، فلم يجده إلا فى طريقة الشك ، وسماه « بمنهج الشك » أى « الشك فى الطريق الموصلة إلى الحقيقة واليقين .

وبدأ — يتأمل فى المحسوسات ، ثم افترض الشك فيها ، وانتهى من طول

---

(١) شرح السنوسية الكبرى « المسماة بأم البراهين الكبرى » ص ٢٩ ، ط أولى .

شكه فى المحسوسات إلى رفضها ، ورفض المعرفة الناتجة عنها ، فقال : « من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل ، فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة ، بل على التدريج قيراط ، قيراط حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلى الكواكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار ؟ »(١) .

إذن فطريق المحسوسات الحاكم فيها الحس ، وأن الحس غير مأمون لأنه لا يعطينا معرفة ثابتة .

وفوق ذلك أن معقل كذب الحس وحكم بتكذيبه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته .

وكذلك أبطل « الغزالى » الثقة فى المحسوسات وما ينتج عنها من معرفة ثم أخذ يسلك المنهج العقلى ، ويتأمله شيئا فشيئا ، حتى اتضح له أنه كثير ما يخطئ فى الحكم ، وما ينتج عنه من معارف تكون فى الغالب خاطئة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى : « إن المحسوسات اعترضت على ما يأتى به العقل من معارف .

وقالت : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بى . فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل — فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل ، فكذب الحس فى حكمه ، وعندئذ

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١١٨ . تحقيق د . عبد الحليم محمود ط ١٩٥٢م

توقف الامام «الغزالى» عن البحث بواسطة العقل، لأنه شك فيه وفى طريقه، وفيما يتوصل بواسطته الى معارف، وأيقن أن طريقه غير مأمون من الوقوع فى الخطأ، ونفض يديه من العقل أيضا، كما رفض حكم الحس قبل ذلك.

ثم توقف قليلا وفكر ثم فكر، حتى اهتدى الى طريقه رآها أنها أسلم للوصول الى الحقيقة المنشودة، وهى حالة «النوم» حيث أعتقد فى النوم أمورا وتخيل أحوالا أن لها ثباتا واستقرارا، ولما استيقظ اكتشف أن ما رآه فى النوم من الأحوال لا أصل لها، وأصبحت اضغاث أحلام.

ثم عاد ليصحح منهجه فى حالة «النوم» وأعتبره مماثلا لحالة اليقظة تماما ثم عكس الحالة، فجعل حالة النوم بدلا من حالة اليقظة، وحالة اليقظة بدلا من حالة النوم. فقال: «فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك التى أنت فيها، ولكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك، وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها، فإذا وردت تلك الحالة ليقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، فما هى تلك الحالة؟

يجاوب الامام «الغزالى» فيقول «لعل تلك الحالة هى الموت».

واستشهد على اجابته هذه بحديث رسول الله ﷺ القائل «الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا»(١).

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٩

فأعتبر الحياة الدنيا نوم بالاضافة إلى الآخرة ، لأن الانسان — على حد قول — اذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف مايشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» .

اذن خرج الغزالى من حالة النوم — التى اعتبرها أوثق من الحس والعقل — على أنها خيالات وأحوال تعترى الانسان ، فاذا ما استيقظ لم يجد لها حقيقة ولا أصل .

فزاد شك فى نفسه ، وخطرت له الهواجس فى نفسه . وأصبح فى حيرة وقلق نفسى لحاول علاج هذه الحالة النفسية ، فلم يجد لها علاجا الا بواسطة الدليل ، وبحث فى المقدمات التى يمكن تركيب الدليل منها ، فلم يتيسر له العثور عليها وعندئذ زاد شك ودام على هـــذه الحالة قرابة شهرين ، وهو فى حالة اعياء شديد من السفسطة بحكم حالته التى هو عليها .

وعندئذ قال عن نفسه : «فلما خطرت لى هذه الخواطر . وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر لى ، اذ لم يمكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين ، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال»(١) .

والخلاصة أن الامام «الغزالى» اتخذ الشك المنهجى سبيلا الى الوصول اليقين .

---

(١) المصدر السابق ١٢٩

فشك أولا : فى الحواس وما يلتجئ عنها من معارف .

وثانيا : شك فى العقل وما توصل إليه من معرفة ، وشك فى حالة اليقظة والنوم فى كل شىء يقع تحت حسه أو عقله أو فى مخيلته يقظة أو منامًا .

وفكر بعد ذلك فى الطريق الذى يخرجه من شكه هذا إلى اليقين فاهتدى إلى دفع الحالة التى كان عليها من الشك الذى جعله ؛ قلق النفس محتار الخاطر ، واعتبر حالته هذه مرض وداء خطير ألم به ، بواسطة نصب وإقامة الدليل ليزيل هذه الشكوك من نفسه ، ويضع فيها اليقين .

ولكن وجد أن نصب الدليل يحتاج إلى مقدمات يتركب منها ، وهذه المقدمات لابد أن تكون قضايا أولية يسلم الفكر بها ، بلا تأمل ولا امعان فكر ونظر .

ولكن عجز عن تركيب هذا الدليل فزاد شكه من الخطورة على نفسيته حتى أضحت مريضة ، وهى على حيرة وسفسطة بحكم ما عليها من حال .

وأخيراً اهتدى إلى طريق التخلص من هذا الشك الذى التابه قرابة شهرين بواسطة النور الروحانى الذى قذفه الله فى قلبه ، حتى عادت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوق بها على أمن ويقين .

ثم سئل عن علامة هذا القذف الروحانى ، فقال : « التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » .

إذن اليقين أتاه بواسطة النور الإلهى الذى شرح الله به صدره والذى اطمأن إليه كل الإطمئنان ، وارتاح إليه كل الإرتياح .

وبذلك أعاد الثقة فى المعلومات التى أوصلت إليه عن طريق العقل ولا يتوهم إنه بهكه الأول رفض العقل كوسيلة لتحصيل المعارف وإنما عاد إليه ووثق به بعد أن بدد ظلام الشك الذى اعتراه فالغزالى بدأ شاكا فى وسائل المعرفة وأخيراً انتهى موقنا ومؤمنا بها بعد ما كشفت له الطريق الواضح لتبديد الشك الذى انتابه وانه الهادى إلى سبيل الرشاد ؟

د . مبارك حسن حسين اسماعيل
مدرس عقيدة وفلسفة بكلية أصول الدين